# الكتب : تجارتها وآثارها في الأندلس حتى نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي

د. علي سليمان محمد

مدرس التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة المنوفية

## مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين،،،،

تُعد الكتب بما تحويه من ثمرات الفكر والإبداع أهم وسيلة للعلم والمعرفة في كل زمان ومكان، فهى الوعاء الحقيقي للحضارة الإنسانية، والوسيلة المثلى لنقل المعارف والأفكار بين الأمم والأجيال، فضلا عن أنها وسيلة اتصال بين البشر؛ بحيث يمكن القول بأن أول الاختراعات تتويجا للإنسانية اختراع الكتابة والكتب، فلا معرفة دون كتاب، ولا تاريخ دون كتابة.

أقام المسلمون في الأندلس حضارة شامخة كان من أهم مقوماتها الاهتمام بالكتب والتعلق بها تعلقا جعلهم قد يفرطون في متاعهم لكن لا يفرطون في كتبهم، كماعرف عنهم شغفهم بالعلم حيث هو الوسيلة المثلى للفوز في الدنيا والسعادة في الآخرة ففي وصية شيخ لابنه يحثه على العلم "فادرس ترأس، واحفظ تُحفظ، واقرأ ترقا" ولا شك وسيلة العلم الكتاب، وكان يكفي أي عائد إلى بلاده من رحلة الطلب أن يحمل معه كتابا جديدا ينشره في بلده، ولذلك أصبحت للكتب في الأندلس سوقا رائجة، والتجارة فيها مربحة وأضفت على صاحبها مكانة رفيعة.

لذلك كان اختيار هذا الموضوع لبيان مدى ما أسهم به الأندلسيون في الاهتمام بالكتب واقتنائها وتداولها كسلعة تجارية، وأثر ذلك في التقدم الحضاري الذي شهدته الأندلس، وذلك من خلال ثلاث نقاط رئيسة هي أولا: موارد الكتب في الأندلس، ثانيا: أماكن بيع وشراء الكتب، ثالثا: آثارها في الحياة الثقافية والاقتصادية في الأندلس.

## أولاً- موارد الكتب في الأندلس:

### أ) كتب المشارقة:

مثلت الأمة الإسلامية عبر تاريخها وحدة ثقافية رغم التجزئة السياسية التي أصابتها، فكانت حرية التنقل في كل اتجاه، والأغلب أن الانتقال -خاصة الكتب- كان من المشرق إلى الأندلس "للمشرق الإسلامي على مغربه فضل كبير، ميدانا للتلقي أو منبعاً للتصدير، فكان للأندلسيين مزار يحملون منه البضاعة" (١).

بعد فتح الأندلس واستقرار أوضاعه بدأ أهله يعتنقون الإسلام، وقد تاقت نفوسهم إلى الرحلة إلى بلاد المشرق لآداء الحج والتزود بالعلم من منابعه، وبمرور الوقت شاعت هذه الظاهرة، ولم تقتصر على العلوم الدينية بل شملت الميادين كافة، ولم تقتصر على فئة دون أخرى، إلا إنهم حرصوا على إحضار الكتب إلى بلادهم، وأحيانا كانوا يحملون إلى المشرق كتبهم التي ألفوها لتصويبها وتنقيحها(٢).

هؤلاء المرتحلون كما يقول المقري(٣)"لا يمكن حصرهم بوجه أو حال" مما كان

---

(١) عبد الرحمن الحجي: الكتب والمكتبات في الأندلس، أبو ظبي، الإمارات،٢٠٠٧، ص١٨.

(٢) مثل عيسى بن دينار (ت٢١٢هـ) حمل معه كتاب البيوع من تأليف أستاذه فعرضه على ابن الماجشون وقال: قرأته عليه فصلاً فصلاً فكان لا يمر بفصل إلا قال: أحسن والله عيساك هذا. ابن الفرضي( أبو الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف ت٤٠١هـ/ ١٠١١م): تاريخ علماء الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، الطبعة الثانية، ص٣٣١ عياض(أبو الفضل عياض بن موسي اليحصبي ت٥٤٤هـ/ ١١٥٠م): ترتيب المدارك، الجزء الثاني، تحقيق، أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١٦-١٧، ابن فرحون (برهان الدين بن علي بن أحمد ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م): الديباج المذهب، دراسة وتحقيق، مأمون بن محي الدين الجنان دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦ الطبعة الأولى، ص٢٤٣.

(٣) المقري( أحمد بن محمد ت١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م): نفح الطيب، المجلد الثاني، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، =

له أثره في كثرة الكتب بالأندلس والعمل فيها إنتاجا وتجارة، من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عباس بن ناصح الجزيري[1] المكلف من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط بالسفر إلى المشرق لشراء الكتب في كل فروع المعرفة، فأحضر إلى الأندلس الكثير مثل كتاب "السد هانت Sidahanta"[2] وغيره وهو "أول من أدخل هذه الكتب الأندلس وعرَّف أهلها بها، واشترى له منها كل غريب[3]"، يفهم من ذلك أن الاهتمام بالكتب لم يقتصر على الكتب الدينية، بل شمل كل أنواع العلم، ومثله: عباس بن فرناس[4] (ت٢٧٤هـ/ ٨٨٧) الذي كلف بمهمة رسمية لإحضار كتب الخليل بن

---

= بيروت، ١٩٨٨، ص٥.

(١) ولد بالجزيرة ورحل به أبوه صغيرا إلى مصر فنشأ بها وتنقل في طلب العلم فلقى الأصمعي وغيره من علماء البصرة والكوفة وعاد إلى الأندلس، ولاه المستنصر قضاء شذونة والجزيرة الخضراء. ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٦-٢٩٧، ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٧م): المغرب في حلى المغرب،الجزء الأول،تحقيق، شوقي ضيف،دار المعارف، الطبعة الرابعة،ص٣٢٤-٣٢٥، ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في الأندلس، ترجمة،الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة، بدون، ص٦٢، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الأول، مكتبة الأسرة، القاهرة،٢٠٠١، ص٢٨١، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،٢٠٠١، ص٣١٢-٣١٣، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية،١٩٩٧، ص١٥٩.

(٢)أي المستقيم وهو مقالة في الأفلاك لفراهميرا الهندي قدم به رجل فلكي من الهند يدعى كانكا للخليفة العباسي المنصور فأمر بترجمته إلى العربية، فتولى ذلك إبراهيم بن محمد الفزاري. البيروني( أبو الريحان محمد بن أحمد ت): كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، الذخائر١٠٩، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة،٢٠٠٣، ص١١٨، ابن صاعد(أبو القاسم صاعد بن أحمد ت٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م): طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٨، ص٥٠، شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،١٩٩٧،الطبعة الأولى، ص١٣٠،٣٧-١٣٦،١٣١-١٣٧.

(٣) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، الجزء الأول، تحقيق، لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٨٣، ص١٤٢.

(٤) لقب بحكيم الأندلس، متعدد المواهب العلمية فهو: فيلسوف، كيميائي، فيزيائي، فلكي، ذاع نجمه في الأندلس، عاصر ثلاثة من أمراء بني أمية هم: الحكم بن هشام، وولده عبد الرحمن، وحفيده محمد، أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فسر كتاب العروض للخليل في الأندلس، ونسب إليه السحر والكيمياء، وأول من حاول الطيران. الحميدي(أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م): جذوة المقتبس، =

أحمد في علم العروض؛ ونجح في مهمته تلك وأحضر كتاب"الفرش"[1] فشكره الأمير وكافأه بثلاثمائة دينار وكسوة.

قبلهما كانت رحلة أبي موسى الهواري خلال إمارة عبد الرحمن الداخل، وجمع في رحلته هذه كتبا كثيرة حملها معه إلى الأندلس، لكنه تعرض أثناء عودته لبلده لحادث فقد فيه كتبه- غرق مركبه- أما هو فقد نجا وعاد إلى بلده استجة[2]، فأتاه أهلها يهنئونه بسلامته ويعزونه في فقد كتبه، فكان يرد عليهم قائلاً:"ذهب الخرج وبقى الدرج[3]"-يعني ما في صدره-، وهذا دليل على مدى تعلق الأندلسيين بالكتب وفقدانها لا يختلف عن فقد عزيز يتطلب تقديم واجب العزاء فيه ينطبق عليهم "خير جليس في الزمان كتاب" كما أن في هذا دلالة على أن حفظ الكتب في الصدور كان وسيلة أيضا من وسائل نقل الكتب إلى الأندلس وإملائها ونسخها من جديد.

بلغ الاهتمام بالكتب ذروته في عهد الخليفة الحكم "الثاني" المستنصر إذ كان

---

= الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ٢٠٠٨، الطبعة الثانية، ص٣١٨، الضبي( أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م): بغية الملتمس، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٨، الطبعة الثانية، ص٤٣١، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص٣٣٣، زرهوني نور الدين: الطب والخدمات الطبية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،٢٠٠٦، ص٢٣.

http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/scince-29/scince6.asp

(١) الزبيدي(أبو بكر محمد بن حسن ت٣٧٩هـ/ ٩٩٠م):طبقات النحويين واللغويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص٢٦٨-٢٦٩. أدخل بعض التجار كتاب المثال في العروض الأندلس، وكتاب المثال يعني باب المثال، وهو الباب الثاني من كتاب العروض، فكأنه كان مجزّءاً إلى كراستين، أولاهما كتاب الفرش، أي باب الفرش، وثانيتهما كتاب المثال، ويتشكل من مجموعهما كتاب العروض.

http://www.alwaraq.net/Core/dg/dg_topic?ID=3278&sort=us.firstname&order=desc

(٢) مدينة قديمة قرب قرطبة. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار بقلم، ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت،١٩٨٨، الطبعة الثانية، ص١٤-١٥.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٢٥٧-٢٥٨، الزبيدي: طبقات النحويين، ص٢٥٣، عياض: ترتيب المدارك، الجزء الأول، ص٥٠٧-٥٠٨.

اهتمامه بها لا يعرف حدودا "جمع منها ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة[1]" وكان يرسل إلى كل مكان تجارا ونساخا وغيرهم من ذوي الخبرة بالكتب، ويمدهم بالأموال الطائلة بحثا عن الكتب يشترونها أو ينسخونها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهد قبله[2]، ومن هؤلاء طائفة لازمت مدينة بغداد للبحث عن كل جديد في مجال الكتب منهم: محمد بن طرخان والقاضي ابن الوفي عمر بن إبراهيم وغيرهما، وقاموا بمهمتهم خير قيام، حتى إنهم كانوا يرصدون الكتب التي ما زالت في مرحلة التأليف، فقد أخبروه أن أبا الفرج الأصفهاني يؤلف كتاباً لم ينته منه بعد – الأغاني- فبعث إليه الخليفة ألف دينار ثمنا لنسخة من كتابه، فأرسل إليه الأصفهاني الكتاب قبل أن يظهر بالعـراق[3].

---

(١) ابن صاعد: طبقات الأمم، نشر، لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت،١٩١٢، ص٦٥-٦٦، طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، ص٨٧، ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م): الحلة السيراء، الجزء الأول، تحقيق، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥، الطبعة الثانية، ص٢٠١.

**Stanley lane poole: The Moors in Spain,london,1888,p.152-155.**

(٢) ابن صاعد: طبقات الأمم، نشر شيخو، ص٦٥-٦٦، ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٢٠١، عبد الواحد المراكشي(عبد الواحد بن علي٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية المتحدة، القاهرة،١٩٦٣، ص٦١، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م ): تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة الذخائر رقم ١٥٦، ص١٤٦، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٨٥، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الأول، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة،٢٠٠٨، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص٢٠١-٢٠٢، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٨٥-٣٨٦، ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ترجمة، علي البمبي وآخرون، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٢، الطبعة الأولى، ص٤٣٣، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة،٢٠٠١، ص٣٨٣، ويعرف عن الأصفهاني أن كان أمويا رغم تشيعه، ولذلك كان بعيدا عن قصور بني العباس وهذا أمر تعجب منه كل من ابن الأثير وابن العماد الحنبلي حيث ذكرا عنه ومن العجائب أن مروانيا يتشيع. الكامل في التاريخ، المجلد السابع تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧، الطبعة الأولى، ص٣٠٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، الجزء الرابع، تحقيق: =

لم يقتصر دور هذا الخليفة على جمع الكتب واقتنائها فقط بل كان حريصا على قراءتها والتعليق في حواشيها تعليقات مفيدة، وقلما وجد كتاب في خزانته إلا وله فيه قراءة أو تعليق في أي فن كان من فنون العلم، وكان حجة عند علماء عصره لكثرة مطالعته[١]، وعثر على كتب عليها خطه وملحوظاته وكان العلماء يعتبرون ملحوظاته أصولاً تعتمد، يؤكد الحميدي[٢] أنه رأى خط الحكم على العقد الفريد لابن عبد ربه قال: "هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا لأنه كان عالماً ثبتاً" كما أنه كتب أخبارا بيده نقلها الناس عنه، كما روى ذلك ابن حيان على لسان عيسى الرازي قال: وجدت بخط الخليفة الحكم المستنصر بالله من خبر ابن القط الثائر على جد أبيه الأمير عبد الله[٣].

نتيجة لذلك ازداد إقبال الأندلسيين على الرحلة إلى المشرق للطلب وجمع الكتب فكما يقال: "الناس على دين ملوكهم" وهناك أمثلة كثيرة لعلماء اختصوا بكتب معينة جلبوها إلى الأندلس، ومما يلقي مـزيدا من الوضوح على هذا الأمر كتب البرامج والفهارس الأندلسية التي تذكر بعض الكتب التي انتقلت إلى الأندلس وعلى يد من؟

---

= عبد القادر الارناؤوط، دار ابن كثير، دمشق،١٩٨٩، الطبعة الأولى، ص٢٩٢.

(١) ابن صاعد: طبقات الأمم، تحقيق، حسين مؤنس،ص٨٧، ابن الأبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص ٢٠١-٢٠٢، التكملة، الجزء الأول، ص٢٢٦-٢٢٧، ابن الخطيب( أبو عبد الله لسان الدين ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الأول، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣، الطبعة الثانية، ص ٤٧٨، الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيي٩١٢هـ/ ١٥٠٧م): المعيار المعرب والجامع المغرب، خرجه: مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب،١٩٨١، الطبعة الأولى، ص٣١٧، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٩٥٥، ص١١، بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٣٢٥.

**The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Volume III, London, 1996, p 74-75.**

(٢) جذوة المقتبس، ص١٠١، الضبي: بغية الملتمس، ص١٤٨-١٤٩، كما أورد ابن فرحون في ترجمة عبد الملك بن حبيب أنه نقلها من خط الحكم المستنصر. الديباج المذهب، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٣) ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق،إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، المغرب،١٩٩٠، الطبعة الأولى، ص١٦٠.

فاسم الكتاب والسند الذي يذكره صاحب الفهرسة يوضح كثيرا من هذه الأمور، فقد بيَّن ابن خير مثلا في فهرسته سبل الاتصال بين المشرق والأندلس من خلال الرحلة ووفود العلماء المشارقة إلى الأندلس[١] وبتصفح هذه الفهرسة للتدليل على أهميتها في بيان أثر الرحلة في جلب الكتب إلى الأندلس، نذكر مثالاً لأحد العلماء الذين رحلوا إلى المشرق هو: أبو عبد الله محمد بن شريح المقرئ (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) الذي نقل إلى الأندلس ما يفوق الأربعين كتاباً، روى معظمها عن مؤلفيها في علوم القرآن والحديث والفقه والأدب وغيرها، منها على سبيل المثال: كتابى الإرشاد وإكمال الفائدة في القراءات لأبي الطيب ابن غلبون، وكتاب التمهيد في القراءات لأبي على الحسن البغدادي سمعه عن مؤلفه في مسجد سوق بربر بفسطاط مصر سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وكتاب الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري، وإن كانت المصادر لم تذكر تفصيلا الكتب المشرقية التي دخلت الأندلس، فلسنا نبعد عن الصواب كثيرا حين نتصور أن كثيرا من كتب الأعلام المشارقة قد وصلت الأندلس مثل كتب الأصمعي والكسائي والفراء وغيرهم نتيجة لهذه الرحلات العلمية[٢]، ويلحظ أن الأندلسيين لم يكتفوا بجلب كتب المشارقة بل تناولوها بالشرح والنقد، مثل: أبي عبيد البكري الذي تتبع مؤلفات ابن سلام بالشرح والنقد، وشرح كتاب أمالي القالي في كتابه اللآلي في شرح أمالي القالي[٣] وغيره.

يوضح المراكشي[٤] مدى ما اتصف به الأندلسيون من دأب ومثابرة على جمع

---

(١) عبد العزيز الأهواني: كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد الأول، الجزء الأول،١٩٩٣، الطبعة الثانية، ص٩١-٩٥، هانئ العمد: كتب البرامج والفهارس الأندلسية، الأردن،١٩٩٣، الطبعة الأولى، ص٩٦.

(٢) البير حبيب مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة العصرية، صيدا،بيروت،١٩٦٧، ص٦٢.

(٣) اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق،عبد العزيز الميمني، سلسلة الذخائر١٨٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،٢٠٠٩.

(٤) عبد الملك المراكشي(أبو عبد الله محمد بن محمد ت٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م):الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق، محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص٢٧-٢٩، السفر الثامن، القسم الأول، المملكة=

الكتب ونقلها إلى الأندلس في قصة أحمد بن إسماعيل الحضرمي المعروف بابن رأس غنمة (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ورفيقه محمد بن أحمد الكناني الأشبيليان إذ ارتحلا سويا إلى المشرق وأديا الحج، وعادا إلى الأندلس بفوائد جمة وغرائب كتب لا عهد لأهل الأندلس بها، ولكي ينسخا أكثر في وقت أقصر فقد اتفقا على أن ينسخ كل واحد منهما غير ما ينسخه صاحبه استعجالا لتحصيل الفائدة، حتى إذا عادا إلى الأندلس أخذ كل واحد منهما ما فاته من الآخر، ومن أهم الكتب التي جلباها "كشاف الزمخشري" ومقاماته الخمسين" وشرح الستة" وتاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري وكانت النسخة التي جلباها من هذا الكتاب في ثمانية أسفار بخط مشرقي، ولكن أخذ عليهما أنهما نقلا إلى الأندلس بعض أفكار المعتزلة، فيذكر المراكشي علي لسان الفقيه أبي الحسين محمد بن زرقون قوله: "كانت الأندلس منزهة عن هذا وأشباهه.

بالرغم من هذا فلم تكن كل الكتب التي دخلت الأندلس تلق قبولاً فهناك كتب انتقدها الفقهاء بسبب ما فيها من أفكار، وخير مثال يعبر عن ذلك ما تعرض له بقي ابن مخلد (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) من محنة مع فقهاء قرطبة وإصدارهم فتوى بإباحة دمه، وذلك بعد عودته من المشرق بكتب جديدة لا عهد لأهل الأندلس بها في علم الحديث والاختلاف، بحيث عُد بقي فيما بعد - بعد زوال محنته- مؤسس علم الحديث في الأندلس[١] مثل: "مصنف ابن أبي شيبة[٢]"وكتاب التاريخ لخليفة ابن خياط[٣] وغير ذلك.

---

= المغربية، ١٩٨٤، ص١٢٧-١٢٨.

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٩٢، ابن عذاري( أبو عبيد الله محمد كان حيا ٧١٢هـ): البيان المغرب، الجزء الثاني، تحقيق: كولان وليفي بروفنسال،دار الثقافة،بيروت، لبنان، ١٩٨٠،الطبعة الثانية، ص١٠٩.

(٢) أبو بكر بن عبد الله بن محمد من المحدثين ت٢٣٥هـ له كتب كثيرة منها، كتاب السنن في الفقه وكتاب التفسير وكتاب المسند في الحديث، كتاب التاريخ والفتن والجمل.ابن النديم(أبو الفرج محمد بن إسحاق ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥م): الفهرست، الجزء الأول، تحقيق:رضا- تجدد، طهران،١٩٧١، ص٢٨٥.

(٣) خليفة بن خياط الملقب بشباب، توفي ٢٤٠ هـ محدث نسابه إخباري صنف كتابا في التاريخ من عشرة أجزاء طبع منه جزء واحد ووصف بسعة العلم. ترجمته في تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق، مصطفى نجيب فواز وحكمت=

فضلا عن ذلك كان كل من يرحل إلى الأندلس من المشارقة يكون مصحوبا بكتبه، وربما كان أهم ما يملكه العالم في بيته مكتبته، وهي أهم ما لديه في الحل والترحال، وخير مثال يعبر عن ذلك؛ العالم أبو على القالي البغدادي[1] (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) الذي وصل الأندلس عام٣٣٠هـ/ ٩٤١م واستقبل استقبالا رسميا وحظي بمكانة سامية في بلاط الخلافة، ولم تكن هجرة القالي هجرة رجل عادي بل كانت ذات أثر بعيد فيما يخص الكتب التي جلبها معه من المشرق مقروءة على العلماء محققة الأصول، وقد أفرد ابن خير في فهرسته بابا تحت عنوان: "تسمية كتب الشعر وأسماء الشعراء التي وصل بها أبو على البغدادي إلى الأندلس"[2]، وظل القالي أستاذا للأندلسيين يملى عليهم ما حمل من علم المشرق بجامع قرطبة[3]، إذن مثلت كتب المشارقة أحد أهم روافد الثقافة الأندلسية.

---

= كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،١٩٩٥، الطبعة الأولى، ص٥-٩ مقدمة المحقق، الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الحادي عشر، ص٢٧٢-٢٧٣.

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ولد بمنازكرد من ديار بكر من اعمال أرمينية عام٢٨٢هـ ورحل منها إلى العراق لطلب العلم سنة٣٠٣هـ ولقب بالقالي نسبة إلى مدينة قالي قلا وأقام ببغداد خمسة وعشرين سنة ثم خرج منها قاصدا المغرب سنة٣٢٨هـ. للمزيد راجع كتاب الأمالي، المجلد الأول، تقديم، محمد مصطفى أبو شوارب، سلسة الذخائر، رقم١٨٢، القاهرة ،٢٠٠٩م، ص١٣-٣٥، الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص١٨٥-١٨٨، الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٦٤-١٦٧،ابن خير: فهرسة، الجزء الثاني، ص٥١٣، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٥٩-٦٠، ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم الأدباء، الجزء الثاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، الطبعة الأولى، ص٧٢٩-٧٣١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص٢٢٦، السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن ت٩١١هـ/ ١٥٠٦م): بغية الوعاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، ص٤٥٣، المقري:نفح الطيب،المجلد الثالث،ص٧٠-٧٥.

(٢) الجزء الثاني، ص٥١٠-٥٣٠.

(٣) هانيء العمد: كتب البرامج والفهارس الأندلسية، ص٧٦، ولعل قدوم القالي قد ساعد الأندلسيين على القليل من الرحلة لأنهم وجدوا فيه خلاصة العلم المشرقي.

**Pons Boigues: Historiadores Y Geografos Arabigo- Espanoles,Madrid,1898,p 72-73.**

## ب) تأليف الأندلسيين للكتب :

لم يكتف الأندلسيون بما وصل إليهم من كتب، بل كانت لهم جهودهم الخاصة في مجال الإنتاج العلمي، واشتهروا بغزارة التأليف في كل العلوم، وكان الأمراء والخلفاء يقدرون العلم والعلماء، وفي هذا المجال ارتفع الخليفة الحكم الثاني إلى درجة عالية لا يكاد يدانيه فيها أحد، وتتجلى أهم مظاهر اهتمامه بالكتب تشجيع التأليف وإكرام العلماء سواء خارج الأندلس أو داخلها، فمن خارج الأندلس ما فعله مع أبي الفرج الأصفهاني، وما فعله مع القاضي أبي بكر الأبهري في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم[1]، فضلا عن إعانة المؤلفين بالمال ليتفرغوا للتأليف، وتزويدهم بما يحتاجون إليه من مصادر من مكتبته، فقد أرسل إلى عبد الرحمن بن يونس صاحب تاريخ مصر والمغرب كتبا استعان بها في تصنيف كتابه[2].

أما في داخل الأندلس كان نشاطه في مجال التشجيع على التأليف كبيرا، واتخذ في هذا السبيل وسائل منها: الإعفاء من الخروج للقتال معه مقابل تأليف كتب؛ مثل ما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث(ت٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) المعروف بابن الصفار[3]، كذلك تولية الوظائف وتقديم العطايا إلى المؤلفين: مثل أحمد بن عبد الملك الأشبيلي (ت٤٠١هـ/ ١٠١١م) الذي ألف للخليفة الحكم كتاب الاستيعاب، واشترك معه في تأليف هذا الكتاب أبو بكر محمد بن عبد الله القرشي، فوصلهما الخليفة بجائزة كبيرة وولاهما خطة للشورى[4]، لذلك اتخذ البعض من تأليف الكتب وسيلة للتقرب منه مثل: أبي عبد الله بن مفرج القرطبي الذي اتصل بالخليفة الحكم وألف له عدة كتب،

---

(١) المقري: نفح الطيب، المجلد الأول ص٣٨٦.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٢-٣، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص٣١٤.

(٣) ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن عبد الله ت٥٢٩هـ/ ١١٣٥م): مطمح الأنفس، تحقيق، محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، الطبعة الأولى، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٤) ابن بشكوال: كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٢٢-٢٣.

فعينه على قضاء استجه ثم المرية[1]، كما قرب منه الخشني (ت٣٦١هـ/ ٩٧١م) ورفع مكانته بين العلماء، لأنه ألف له كتبا كثيرة[2]، وخير شاهد على ذلك كتابه قضاة قرطبة افتتحه بالثناء على الحكم، وأنه كان وراء تصنيفه للكتاب بما كان يبديه له من ضروب التشجيع المادي والمعنوي[3].

كما كان الحكم يقترح على العلماء القيام بتأليف كتب في موضوعات معينة؛ ومثال ذلك كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي إذ ذكر في مقدمته أن الخليفة أمره بتأليف هذا الكتاب وأمده بعنايته وعلمه قال:" فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به أمير المؤمنين، وأمدني أبقاه الله في ذلك بعنايته إذ هو البحر الذي لا تُعبر أواذيه(أمواجه)، ولا تدرك سواحله، ولا ينزح غمره (لا ينفد ماؤه)، ولا تنضب مادته[4]"، ويؤكد الإشبيلي ذلك بقوله "وفي أيامه- المستنصر- كثر العلماء وأدلوا بما عندهم وألفت التواليف وصنفت التصانيف[5]".

سار المنصور ابن أبي عامر(ت٣٩٢هـ/ ٩٩٥م) على خطى الخليفة الحكم في حث العلماء على تأليف الكتب ومنحهم الهبات والعطايا، كما شجع أيضا وفود علماء مشارقة إلى الأندلس وحثهم على تأليف كتب جديدة ربما لا تقل في أهميتها عن الكتب التي ألفت قبله، ومن أشهر هؤلاء أبي العلاء صاعد اللغوي (ت٤١٧هـ/ ١٠٢٦م) الذي ألف للمنصور مجموعة كتب أوردها الحميدي في جذوته، وكان المنصور شغوفا

---

(١) المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٢١٨.

(٢) Pons Boigues: OP., CIT.,P.76-79.

(٣) الخشنى (أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد ت٣٦١هـ/ ٩٧٢م): قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص١-٢، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص١١٣، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٦٧-٢٦٨، ريبيرا: التربية الإسلامية، ص١٩٦.

(٤) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص١٦-١٨، البير مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس، ص٨٧.

(٥) سامية مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس،عين للدراسات، القاهرة، ٢٠٠٠، الطبعة الأولى، ص٧، نقلا عن محمد بن إبراهيم الإشبيلي، ريحانة المنتاب وريعان الشباب، مخطوطة بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم ١٤٠٦، ورقة ١٣٩.

بأحدها –كتاب الجواس– حتى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة[1] ومنها كتاب الفصوص الذي أهداه إلى المنصور[2].

كان ذلك النموذج الغالب والشائع للتأليف ولكن وجد لمؤلفين لم يتصلوا بصاحب سلطة ورفضوا أن يضيفوا اسمه في مؤلفاتهم وإصرارهم على أن علمهم خالصا لله تعالى؛ ومن هؤلاء العالم اللغوي ابن التياني(ت٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) صاحب كتاب "تلقيح العين[3]" ولما علم به الأمير أبو الجيش مجاهد العامري أمير مرسية، أرسل إليه ألف دينار وكسوة فاخرة على أن يهدى الكتاب إليه وذلك بإضافة عبارة "مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد" لكنه رفض بشدة[4] فكان أن زاد ابن التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس، ونقل الحميدي[5] عنه أنه قال بهذه المناسبة: "والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب فإني لم أجمعه له خاصة، ولكن لكل طالب علم عامة فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها" فهكذا ينبغي أن تكون الملوك، وكذا يجب أن يكون العلماء على حد تعبير الحجاري[6] وتأكيدًا على ذلك نقول إن للكلمة مكانتها وأهميتها وفعلها

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس،ص٢٤٠-٢٤٤، الضبي:بغية الملتمس،ص٣١٩- ٣٢٣

(٢) ابن خير: فهرسة، الجزء الثاني، ص٤٣١، وهذا الكتاب مطبوع بتحقيق، عبد الوهاب التازي، وزارة الأوقاف بالمغرب،١٩٩٣، لكن يؤخذ على ابن أبي عامر إحراقه لبعض الكتب من مكتبة الحكم المستنصر. للمزيد راجع صاعد: طبقات الأمم، ص٦٦، بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة، ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٦٢-٦٣، البير مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس، ص٩٣.

(٣) ابن خير: فهرسة، الجزء الثاني، ص٤٦٧-٤٦٨.

(٤) ابن خير: فهرسة، الجزء الثاني، ص٤٧٦-٤٦٨، الحميدي: جذوة، ص١٨٣، الضبي: بغية، ص٢٥٢،ياقوت: معجم الأدباء، المجلدالثاني، ص٤٦٩-٤٧٠، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص١٨٩-١٩٠، الحجي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٣٢-٣٣، محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٧٠، ص١٨٧-١٨٨.

(٥) جذوة المقتبس، ص١٨٣.

(٦) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص١٦٦ .

Pons Boigues: op., cit.,p. 123-124.

في كل أوان وفي أي ميدان وهي أمضى من السنان فليس عجبًا أن يكون قلم العالم أمضى من سنان المحارب

وبضمر الأقلام يبلغ أهلها ما ليس يُبلغ بالجياد الضمر[1]

ج) كتب أخرى :

وردت الأندلس كذلك مجموعات من الكتب من البلاد الأوربية، ترجمت إلى العربية لغة العلم والحضارة آنذاك، لكن يبدو أن المصادر لم تهتم بهذا الأمر كثيرا، وأهم ما ذكرته في هذا الشأن كتباً جاءت إلى الأندلس بصفة رسمية نتيجة للعلاقات الدبلوماسية بين الدولة البيزنطية والأندلس عندما قدمت سفارة قسطنطين السابع[2] (٩٠٥-٩٥٩م) إلى قرطبة عام (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)[3] لم يجد الإمبراطور ما يتقرب به إلى

---

(١)هذا البيت لابن عبد الملك بن إدريس الجزيري من قصيدة مشهورة يوصي فيها ابنه باحترام العلم وتبجيله مطلعها:

اعلم بأن العلم أرفع رتبةً وأجل مكتسب وأسنى مفخرِ.

الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٨٠-٢٨١، ابن سعيد: المغرب، الجزء الأول، ص٣٢٢، الخطيب البغدادي(أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م): تقييد العلم، تحقيق، يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية ص ١٣٠.

(٢) هو قسطنطين بن إليون- من أباطرة الأسرة المقدونية- وكان صغيرا وولى أرمانوس وصيا عليه فغلب عليه وقام بالملك في وجوده وسمى نفسه ملكا وصار للقسطنطينية في ذلك العصر ملكان، حتى أن الرسالة التي أرسلت مع هذه الهدية كان عنوانها قسطنطين ورومانوس المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٣.

(٣) اختلفت المصادر في تحديد تاريخ هذه السفارة وقدمت تواريخ متعددة منها ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، وعقب المقري على ذلك بقوله "والله أعلم أيهما أصح". نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٦٤، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، الجزء الثاني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠، ص٢٥٨-٢٦٠، ابن ابي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩١-٤٩٤، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢١٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٤٢، والمراجع الحديثة تختلف أيضا فيذكر مؤنس أن هذه السفارة كانت سنة ٣٣٦هـ تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، الدار المصرية اللبنانية،١٩٩١، الطبعة الأولى، ص١٤٧، ويذكر سالم أن هذه السفارة عام ٣٣٨هـ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص٣١٥-٣١٦، وهذا يؤكد أنه كانت هناك سفارتان من الإمبراطور للخليفة في عامي ٣٣٦ و٣٣٨هـ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت)، ص٢١٦.

الخليفة خيرًا من إهدائه كتاب ديسقوريدس في الطب "مصور الحشائش بالتصوير الرومي" وكان مكتوبا بالإغريقية -اليونانية القديمة- في مجلد رائع، وأرسل كذلك الراهب "نيقولا Nicola" ليقوم بترجمة هذا الكتاب إلى العربية[1]، وقد اشتهرت هذه الترجمة في الأندلس حتى أصبح يعتمد عليها في الطب، بدلا من الترجمة التي تمت في بغداد قبل ذلك[2]، وكان ضمن الهدية أيضا كتاب "هروشيش في التاريخ" باللاتينية وهو تاريخ للروم وتمت ترجمته إلى العربية أيضا[3].

بالإضافة إلى هذه السفارات الرسمية التي كانت حريصة على تقديم الكتب كهدايا لكسب ود حكام الأندلس، اتبع بعض العلماء الأندلسيين أسلوب المقايضة للحصول على الكتب من بلاد الروم - وهناك إشارة تدل على ذلك حيث كانوا يبعثون بالسلع التي يحتاجها أهالي تلك البلاد مقابل الكتب، ومن ذلك ما فعله محمد ابن سعيد بن مدرك الغساني المالقي(ت٥٧٠هـ/ ١١٧٥م) الذي كان شديد العناية باقتناء ذخائر الكتب، ويذكر أن السبب في حصوله على هذه الكتب مجاعة حدثت في بلاد الروم فبعث إلى تلك البلاد مركبا محملا بالطعام، وجعل على هذا المركب شخصا ذا معرفة بالكتب، وأوصاه ألا يبيع من هذا الطعام شيئا إلا بكتب فجلب له

---

(١) Dioscurides طبيب وعالم وعشاب يوناني ولد في بلدة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى، وكان بعد ابقراط وترجم من كتب ابقراط الكثير، ومعنى هذا الاسم في اليوناني شجار الله أي ملهم الله على القول في الأشجار والحشيش،. ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، دار الكتب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢١-٢٢، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٣-٤٩٥، حسن نافعة وبوزورث: تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة: حسين مؤنس،عالم المعرفة، ١٩٩٨، الكويت، ص٢٨٩-٢٩٠هامش رقم١، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، الجزء الثاني، ص٢٩١-٢٩٢، مصطفى الشهابي:تفسير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، الجزء الأول،١٩٥٧، ص١٠٥-١٠٨.

(٢) تمت هذه الترجمة في عهد الخليفة العباسي المتوكل علي يد اصطفن بن بسيل من الإغريقية إلى العربية وراجعه حنين ابن إسحاق، للمزيد راجع زرهوني نور الدين: الطب والخدمات الطبية في الأندلس، ص٣٥، عبد الرحمن البرقوقي: حضارة العرب في الأندلس،المكتبة التجارية،القاهرة،١٩٢٣،ص٧٤-٧٥.

(٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، ص٣، فيه تاريخ للروم وأخبار الدهور والملوك الأول، وفوائد عظيمة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٣.

من نوادر الكتب الكثير[1].

## إعداد وتجهيز الكتب في الأندلس:

وضح مما سبق أن الأندلس غدت مصبا للكتب من الأنحاء كافة، مما كان له أثره في كثرة عدد الذين يقبلون على شراء الكتب واقتنائها، وتحت زيادة الطلب على الكتب أخذ منتجو الكتب يعملون بجد لزيادة عدد المعروض منها، ومرت عملية إنتاج الكتب بمراحل أولها النسخ فما إن يظهر كتاب جديد حتى تتلقفه الأيدي بالنسخ لتنشره وتوزعه، وكانت هناك عدة طرق للنسخ منها: قيام بعض العلماء أنفسهم بالنسخ، والبعض عين نساخا خاصين بهم برواتب معلومة مثل قاضي الجماعة ابن فطيس (ت٤٠٢هـ/ ١٠١١م) الذي كان له ستة وراقين ينسخون له الكتب في مكتبته برواتب ثابتة[2] ولذلك فائدة قصوى وهي مراعاة الدقة والتأني في النسخ مما يقلل الخطأ الناتج عن الاستعجال.

كما قام نساخو الكتب بدور كبير في نسخ الكتب النادرة للأمراء والأغنياء، الذين يرغبون في تكوين مكتبات مثل الخليفة الحكم الذي عين عددا كبيرا من النساخ للعمل في مكتبته الشهيرة، وكان رئيسهم ظفر البغدادي[3] ونلمس من إطلاق لفظ رئيس الوراقين على ظفر وجود نظام يسود العمل بالمكتبة، فلكل مجموعة رئيس يشرف عليهم في مهنة النسخ، والتثبت من صحة ما يقومون به وقد وصف "كان قصره حافلا بالكتب حتى بدا كأنه مصنع لا يرى الإنسان فيه إلا نسَّاخين ومجلِّدين ومزخرفين يحلون الكتب بالمنمنات والرسوم الجميلة[4].

---

(١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، ص٢١٢-٢١٣.

(٢) ابن بشكوال، كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٣٠٩-٣١١، النباهي(أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن ت٧٩٤هـ): تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، الطبعة الخامسة، ص٨٧-٨٨، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٣) المقري: نفح الطيب، المجلد الثالث، ص١١١-١١٢.

(٤) دوزي: المسلمون في الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٥، ص٦٦،=

بعد الانتهاء من النسخ تبدأ مرحلة المراجعة والمقابلة للاطمئنان على صحة ودقة النسخ، وهذه الخطوة ضرورية جدا ضمانة لإنتاج كتب صحيحة، مما يدعونا إلى الثقة الكبيرة في تراثنا، وفي هذا الصدد كان يتداول مثل: "اكتب وقابل وإلا اطرح في المزابل[1]"، ومن ذلك مثلا ما كان يتم داخل مكتبة الخليفة الحكم الذي كان يأمر بمراجعة الكتب ومقابلتها من خلال جمع النسخ المتعددة للكتاب، ثم مقابلة هذه النسخ ببعضها لمعرفة أوجه النقص أو الخطأ للوصول إلى نسخة صحيحة، كما ذكر الحميدي[2] عن كيفية تصحيح نسخة كتاب العين للخليل بن أحمد في مكتبة الحكم وكان من بين النسخ التي استخدمت في المقابلة نسخة القاضي منذر البلوطي التي رواها بمصر.

بعد الانتهاء من مرحلة المراجعة والمقابلة كانت تجلد الكتب لتخرج في شكلها النهائي، ونال التجليد عناية خاصة حيث كانت غرناطة أكثر المدن براعة واتقانا في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليدا نفيسا على وجه الخصوص[3]، فكان أبو عبيد البكري (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) معتنيًا بكتبه يكتبها بخط جيد ويجلدها التجليد النفيس، وكان الملوك والرؤساء يتنافسون في اقتنائها ويتهادونها في حياته[4]، وقد حظي التجليد بتأليف بعض الكتب التي تبين فن وأسرار هذه الصناعة حتى لا تندرس

---

= بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص١٠.

Wasserstein: The library of Al-Hakam 11 Al-Mustansir and the culture of Islamic spain, Manuscripts of the Middle East ,vol. 5 1990, p 99-105.

(١) محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، كلية الآداب بالرباط، المغرب،١٩٩١، الطبعة الأولى، ص١٢، سامية مسعد: الوراقة والوراقون، ص٣٨، للمزيد السمعاني(أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ت٥٦٢هـ/ ١١٦٧م): أدب الإملاء والاستملاء،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٨١م، الطبعة الأولى، ص٧٧-٧٨.

(٢) جذوة المقتبس، ص٥١-٥٢.

(٣) أحمد شلبي: التربية الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٧٨،الطبعة السادسة، ص١٧٠.

(٤) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق، مصطفى السقا،لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، ص (ق) من مقدمة المحقق.

بمرور الأيام، من حيث الأداة المستخدمة والتخزيم والتقفية والتسوية[1]، أي من البداية إلى النهاية وعرف منها مخطوط نفيس يعود زمنه إلى القرن الرابع الهجري هو: عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب" لمجهول فيه شرح واف عن كيفية التجليد وأصوله، وكتاب " التيسير في صناعة التسفير" لأبي بكر الإشبيلي ويحتوى على عدة أبواب يشرح فيها طرق التجليد والنقش التي كانت على عهده[2].

## ثانيًا - أماكن بيع وشراء الكتب :

كان لكل حرفة سوق خاصة بها، فهناك مثلا سوق للبزازين، وأخرى للعطارين، وغيرها للسلاح، كذلك هناك سوق خاص بالكتب، ومما قيل في ذلك:

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب[3]

يوجد ثبت طويل بمن كانت لهم عناية بشراء الكتب واقتنائها أشارت كتب التراجم إليهم ببعض العبارات مثل:" كان جمَّاعًا للكتب"، "اهتم بجمع الكتب" فاشتهر ابن فطيس بشراء الكتب واقتنائها، ومتى علم بكتاب عند أحد طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياعه وإلا نسخه منه ورده إليه[4]، وابن الفرضي

---

(١) للمزيد راجع عبد الله كنون:التيسير في صناعة التسفير لأبي بكر الأشبيلي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ص ٤-٥، عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨ ، الطبعة الأولى، ص١٨٧.

(٢) كتاب التيسير في صناعة التسفير، ص٦-٩.

(٣) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ص١٢٥، المقريزي(تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): الخطط المقريزية،الجزء الثاني، سلسلة الذخائر٥٢، القاهرة،ص١٠١، ربحي عليان: المكتبات في الحضارة الإسلامية، دار صفاء، عمان،١٩٩٩، الطبعة الأولى، ص٨٥-٨٦.

(٤) ابن بشكوال: كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٣٠-٣١١، ابن خير: فهرسة، الجزء الأول، ص١٦٧، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء السابع عشر، ص٢١٠، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص٧٠٤-٧٠٥، بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة، نايف أبو كرم، دار علاء الدين، دمشق،١٩٩٩،الطبعة الأولى، ص١٩٥.

وصف" بأنه كان جماعا للكتب جمع منها أكثر ما جمعه أحد من عظماء بلده، ومحمد بن معمر القرطبي (ت٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م) كان جماعا للكتب عارفا بعللها مميزًا خطوط ناسخيها حجة في عزوتها إلى وراقيها[١]، والأروشي عبد الله بن حيان (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) كانت له همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها بلغ ثلثيها مائة وثلاث وأربعون عدلا من أعدال الحمالين[٢].

قد يظن أن اهتمام الأندلسيين بالكتب قاصرا على الرجال فقط لكن وجدت نسوة اهتممن بجمع الكتب منهن عائشة بنت أحمد القرطبية (ت٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وكانت لها مكتبة ضخمة[٣]، ومثلها رضيه مولاة الناصر التي أعتقها الخليفة الحكم وتزوجها لبيب الفتى وكان يعمل في قصر الخلافة، وخديجة بنت جعفر كانت لها مكتبة ضخمة حبستها على ابنتها[٤]، ولا شك يؤدي ذلك إلى كثرة تردد الأندلسيين على أماكن بيع الكتب ومنها:

**سوق الكتب بقرطبة :**

نتيجة لهذا الإقبال على الكتب ازدهرت تجارتها، واشتغل بها علماء وأدباء أجلاء، وتعددت اماكن بيعها ومن أهمها سوق الكتب بقرطبة التي وصفت "أنها أكثر مدن الأندلس كتباً، وأهلها أشد اعتناء بخزائن الكتب[٥]"، يؤيد ذلك المناظرة التي جرت بين ابن رشد وابن زهر في مجلس الخليفة الموحدي أبي يعقوب المنصور قال ابن رشد

---

(١) ابن بشكوال: كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٢٥٣،المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٣٢٩، حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ص٩٩-١٠١.

Pons Boigues: op., cit., p 240.

(٢) الضبي: بغية الملتمس، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، القسم الثاني، ص٦٩٣.

(٤) ابن بشكوال: الصلة، القسم الثاني، ص٦٩٨.

(٥) المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٢.

Rabbi Jos. Krauskopf: the Jews and Moors in Spain,Kansas city,1887,p.9-10.

لابن زهر: "ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية حتى تباع فيها[1]" فهذا يدل على اهتمام أهل قرطبة بالكتب وكثرة الأسواق الخاصة بها.

كانت طريقة البيع والشراء تتم في هذه الأسواق بالمزاد (المزاودة على حد تعبير ياقوت[2]) وكانت المناداة السبيل للإعلان عن بيع كتاب ما فيزايد عليه الناس واحدا بعد الآخر، ويوضح لنا هذا الأمر مشهد في سوق الكتب بقرطبة بين أحد الأثرياء وأحد العلماء الذي كان يبحث عن كتاب ما أورده لنا المقري[3] على لسان ذلك العالم، وكان يكنى بالحضرمي[4] يقول:" أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع إليَّ بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، فأراني شخصاً عليه لباس ورياسة فدنوت منه، وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فرد عليه: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما

---

(١) المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٣.

Albert.f.calvert: Cordova, the spainish series,London,p.107.

(٢) معجم الأدباء، الجزء الخامس، ص٦٩.

(٣) نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٢-٤٦٣.

(٤) هناك أكثر من شخص حملوا هذه الكنية وربما المقصود هنا جابر بن محمد بن سليمان الحضرمي الأشبيلي وهو أستاذ نحوي كان متقنا لكتب سيبويه توفي٥٩٦هـ. السيوطي: بغية الوعاة، الجزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر،١٩٧٩، الطبعة الثانية، ص٤٨٤.

بيدي بيني وبينه".

يعلق ريبيرا[1] على هذا المشهد بقوله: "رسم لنا صورة لما كانت عليه سوق الكتب بقرطبة، وتمكن الشغف بالكتب من النفوس حتى أصبحت مجرد ترف لدى الأثرياء".

نلحظ أن طريقة بيع الكتب في الأسواق عن طريق المزاد كانت هي الشائعة في مختلف المدن بالأندلس، ومن ذلك أن مكتبة ابن فطيس بيعت بعد وفاته وظل السماسرة والدلالون يترددون على مسجد الأسرة مدة عام كامل ليشهدوا بيعها في المزاد العلني[2].

لم تكن عملية شراء الكتب من الأسواق يسيرة بل كانت بحاجة إلى الخبرة والدراية، وهنا وجد ما عرف بسمسار الكتب أو الدلال –وهو على ما يبدو– شخص موكل بالترويج والدعاية للكتب والنداء عليها كما كان ذوو الحاجة لشراء الكتب يستعينون به لشراء الكتب بأثمان معقولة، ولاشك كانت الاستعانة بهؤلاء السماسرة مقابل أجر متفق عليه[3] بمعنى أن هؤلاء الدلالين كانوا يرتزقون بالسمسرة في سوق الكتب، حيث يفهم من كتب النوازل أن الدلال عامة كان موجودا في الأسواق المختلفة، وأنه كان يتقاضى من المشتري جُعلا يتفق معه عليه، ومن أمثلة ذلك ما سئل عنه الفقية ابن رشد عن الدلال يبيع لنفسه سلعة هل يجوز له أن يأخذ عليها أجرة أم لا؟[4] يؤكد ذلك المراكشي[5] عن مصحف عثمان –رضي الله عنه– بالأندلس زمن

---

(١) التربية الإسلامية في الأندلس، ص٢١٠-٢١١.

(٢) ابن يشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٣٠٩-٣١١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٣) هالة شاكر: الوراقة والوراقون، عين للدراسات، القاهرة،٢٠٠٤، الطبعة الأولى ص٢١٩-٢٢٠.

(٤) ابن رشد(محمد بن أحمد ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م): مسائل أبي الوليد بن رشد، المجلد الثاني، تحقيق، محمد حبيب التجكاني، دار الجيل الإسلامي، بيروت، لبنان،١٩٩٣، الطبعة الثانية ص٨٣١-٨٣٢.

(٥) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، القسم الأول، السفر الأول، ص١٥١-١٧٠، وعن مصحف عثمان ورحلته شرقاً وغرباً راجع، سحر سالم: نصوص تاريخية في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية،١٩٩٧، ص١٢٨-١٩٠.

الموحدين عندما نهب وشوهد بيد سمسار ينادي عليه بسوق الكتب بتلمسان بسبعة عشر درهماً، ويبدو أن هذا الأمر كان سائدًا في أسواق الكتب في مصر أيضا حيث أشار بعض الباحثين[١] إلى احتواء سوق الكتبيين بالقاهرة على دلالين أو سماسرة يعملون بها وكانوا يرتزقون منها.

## دكاكين بيع الكتب :

بجانب الأسواق العامة كانت هناك دكاكين خاصة في أماكن ثابتة ويبدو أنها كانت متجاورة، وكان يطلق على الشارع الموجودة به شارع الوراقين خاصة في المدن الكبرى، وبعضها كان يوجد بجوار المساجد مثل دكان أبي إسحاق إبراهيم بن مبشر (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) قرب المسجد الجامع بقرطبة[٢]، وهذه الحوانيت كانت تقوم مقام دور النشر والمكتبات في أيامنا[٣]، وغالباً ما كان أصحابها من العلماء الذين لهم خبرة بالكتب بحيث يستطيع تلبية رغبة عملائه[٤] مثل: محمد بن سيدراي (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) في بلنسية كان يبيع الكتب في دكان له[٥]، وفي بلنسية أيضا استقر ابن مطروح التجيبي(ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) وراقاً يبيع الكتب، وفي دكانه كان يجتمع الأدباء[٦] وكانت بلنسية المدينة المختارة للوراقين الفارين من الضغط النصراني فإليها انتقل من سرقسطة ابن الصغير وكان من كبار تجارها وخلفه ابنه أحمد وأصبح نساخا وله خبرة بأنواع الكتب[٧]، وابن نوح الغافقي من سرقسطة وانتقل إلى بلنسية واشتهر بحبه للكتب والتجارة فيها، وكان ابن منتيال الوراق من أهل

---

(١) يسري زيدان: سوق الكتبيين بالقاهرة في عصر سلاطين المماليك، ندوة التاريخ الإسلامي، دار العلوم جامعة القاهرة، العدد٢١،٢٠٠٧، ص٣٤٩.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٨٨.

(٣) عبد الستار الحلوجي: الكتاب العربي المخطوط، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٤) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٨٥.

(٥) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس،ص٢١٨-٢١٩.

(٦) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص ٩٥.

(٧) ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص٢٢٩.

مربيطر(ت٦١١هـ/ ١٢١٥م)، سكن لبلنسية وله دكان بالقيسارية يقعد فيه للتجارة وبيع الكتب[١]، وأبو العباس ابن فرتون الغرناطي، كان وراقاً يبيع الكتب[٢]، وكان أبو عمران موسى بن حسين الزاهد من إشبيلية (ت٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م) يتقوت من أثمان الكتب التي معه يبيعها شيئا بعد شيء إلى أن فنيت[٣].

هنا يثار تساؤل عن كيفية بيع الكتب في هذه الدكاكين هل كانت توضع علامة على الكتب يفهم منها أن هذا الكتاب خرج من هذا الدكان -كما تفعل دور النشر في أيامنا- هناك إشارة إلى مثل ذلك في حواشي غلاف مخطوط" نظم الجمان" عبارة عن خاتم نقش فيه اسم عبد القادر القادري" – وإن كان ذلك يبدو متأخرا- ويرجح محقق الكتاب أنه يبدو لمتجر من متاجر الكتب[٤].

كانت تجارة الكتب تتم أيضاً في مجالس العلم وكان صغار تجار الكتب يتنقلون بين هذه المجالس لعرض ما معهم من كتب على أصحابها، ومن ذلك ما يرويه القاضي ابن العربي[٥] (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) في مقدمة كتابه" ترتيب الرحلة" عن سبب رحلته إلى المشرق يقول:" كنت يوماً جالساً مع بعض المعلمين فجلس إلينا أبي يطالع ما انتهى إليه علمي وجلس بجلوسه من حضر من قاصديه، فدخل أحد السماسرة وعلى يديه رزمة كتب فحل شناقها[٦] وأرسل وثاقها، وعرضها عليهم لبيعها.

كانت تجارة الكتب تتم كذلك بين العلماء وربما في منازلهم، فقد اشترى

---

(١) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص٢٨٧.

(٢) ابن الأبار: التكملة، القسم الأول من الجزء المفقود، ص٨٤، عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص١٠٩-١١٠.

(٣) ابن الآبار: التكملة، الجزء الثاني، ص ١٨٠-١٨١.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق، محمود على مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، الطبعة الثانية، ص٥٣ من مقدمة المحقق.

(٥) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٧، الطبعة الأولى، ص١٩٢.
Pons Boigues: op., cit.,p 216-217.

(٦) الشناق: هو الحبل الذي تربط به الكتب.

ميمون بن ياسين (ت٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) من ابن أبي در الهروي صحيح البخاري من أصل أبيه بمال كثير[١]، كذلك اشترى عيسي بن يوسف (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود بمال كثير كذلك[٢]، خاصة وأن بعض العلماء كان يضطر إلى بيع كتبه لضائقة مالية تعرض له؛ مثلما حدث مع أبي العباس بن غالب المالقي الذي تعرض لضائقة مالية اضطر بسببها لبيع أصول بعض كتبه فكتب إليه صديقه أبو محمد القرطبي معاتباً:

نبئت عباساً تُوزع كتبه نهباً ... وأصبح عن سواها مُعزلاً

فعجبت من بطل يبيع سلاحه ... عمداً ويصبح في الكتيبة أعزلاً

فرد عليه أبو العباس بقوله :

بعت الدواوين الأصول لكي ... أروى بأصول أشجار شريت ممولاً[٣]

من المظاهر الشائعة في الأندلس وفي غيرها من أقاليم الدولة الإسلامية قديما وحديثا، فيما يتعلق بالتجارة في الكتب بيع كتب المتوفي، خاصة إذا لم يكن من بين الورثة أحد من أهل العلم أو لم يعقب، وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك منها: بيع مكتبة ابن فطيس بعد وفاته[٤]، ولما توفي فاتن مولى ابن أبي عامر(ت٤٠٢هـ/ ١٠١١م) بيعت في تركته كتب مضبوطة مصححة، لأنه لم يكن له وارث إذ كان من الصقالبة[٥]،

---

(١) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص ١٩٧.

(٢) ابن الأبار: التكملة، الجزء الرابع، ص١٦، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٣، الجزء الثاني، ص ٥٠٠-٥٠١.

(٣) ابن عساكر، ابن خميس: أعلام مالقة، تحقيق، عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الأولى، ص٢٧٨، عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص١١٢.

(٤) ابن بشكوال:الصلة، القسم الثاني، ص٣٠٩-٣١١، ابن فرحون:الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٥) المقري: نفح الطيب، المجلد الثالث، ص٨٢، ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ص٢١٥.

وباع ورثة محمد الغافقي (ت٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) مكتبته بعد وفاته وقومت الورقة في بعضها بربع مثقال، وكان لدى عبد الرحمن بن ملجوم (ت٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) مكتبة بيعت بعد وفاته بأربعة ألاف دينار[١]، وهذا أمر طبيعي يحدث في كل زمان خاصة إذا لم يكن من الأبناء من على شاكلة الأب في الاهتمام بالعلم، وليس فيه ما يدعو للأسف كما أظهر ذلك بعض الباحثين[٢] لأن هذا أمر شائع فمثلا اشترى المعهد المصري في مدريد تركة بروفنسال من ورثته، وكان من بينها مخطوطات كثيرة نادرة مثل مخطوط نظم الجمان لابن القطان[٣]، وفي مصر أيضا بيعت كتب ابن حجر العسقلاني بعناية ولده وأسف على بيعها تلميذه السخاوي، بل إن في هذا منفعة وفائدة أكثر من حبس هذه الكتب في مكتبة لا يراها أحد، ففي انتشار الكتب بين عدد أكبر من المستفيدين يؤدي بلا شك إلى انتشار العلم والثقافة في المجتمع، وهذا ما لاحظناه بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وتفرق الكتب في ممالك الطوائف الأمر الذي أدى إلى ازدهار الحياة الثقافية خلال هذا العصر رغم الضعف السياسي وعُدّ هذا مظهرًا إيجابيًّا للفتنة البربرية.

## أسعار الكتب :

تخضع الكتب باعتبارها سلعة لقانون السوق (العرض والطلب)، ولها أوقات رواج وتصاب أحيانا بالكساد، ومرتبطة بالحياة العلمية والثقافية السائدة في عصر ما، فإذا وجد حكام اهتموا بالعلم ازدهرت تجارة الكتب وراجت سوقها والعكس صحيح، وكانت تجارتها تجري كما يجري تصريف أي تجارة حيث يتساوم البائع والمشترى في السعر، ولم تكن الأسعار المحددة معروفة[٤] رغم قول البعض[٥] إن

---

(١) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص٥٢.

(٢) سامية مسعد:الوراقة والوراقون في الأندلس، ص٥٠.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان، ص٥٢ من مقدمة المحقق.

(٤) حامد الشافعي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص ٦٩.

(٥) هالة شاكر: الوراقة والوراقون، ص٢٢٠-٢٢١، ذكر البعض دور المحتسب في سوق الكتب هو منع الغش والتدليس أو الخروج عن القواعد المتبعة في السوق. سيف المريخي: تجارة الكتب عند العرب المسلمين في =

المحتسب مارس الرقابة على سوق الكتب وحدد أسعارها لكن لا دليل يؤيد ذلك سواء في المشرق أو الأندلس.

هناك عوامل لا شك أثرت في أسعار الكتب، فمؤلف الكتاب ومادته وشهرة الخطاط والتجليد من الأشياء التي تحدد سعر الكتاب، فالمخطوط المكتوب بخط مؤلفه ثمنه أعلى من غيره، فالناس يتنافسون في شراء الكتب التي بخط مؤلفيها، فمثلا أحمد ابن عبد العزيز الوراق(ت٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) كان حسن الخط فتنافس الناس فيما وجد بخطه من الدواوين[١]، ومكتبة محمد بن يحيي الغافقي (ت٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) التي كانت نسخا فريدة بخطوط مؤلفيها مثل كتاب" إصلاح المنطق" بخط القالي، وتاريخ الطبري بخط ابن ملول الوشقي، وبيع هذا كله في تركته وقومت الورقة في بعضها بربع مثقال[٢]، كما أن نسبة الكتاب إلى شخص –الإهداء- كخليفة أو أمير لا شك يؤثر في سعر الكتاب، ومن الطبيعي أن تزداد قيمة مثل هذه الكتب[٣].

وجدت بعض الكتب مدوناً عليها اسم المشتري وثمن الكتاب بما يشبه الفاتورة في أيامنا، -ربما كان ذلك في فترة متأخرة- وهنا يثار تساؤل هل كانت دكاكين بيع الكتب أو غيرها تكتب سعر الكتاب عليه كما يحدث الآن؟ ففي مخطوط فهرسة ابن عطية (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) مثلا: نص تملك لصاحب نسخة هي بخط المؤلف نصها "صارت هذه الفهرسة بالملك الصحيح الشرعي لمحمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدري وهي أصل مؤلفها ابن عطية[٤]"، كما يوجد نص تملك لكتاب تحفة الأنفس لابن هذيل (ت بعد عام٨١٤هـ) مدون فيه ثمن الكتاب واسم المشتري[٥]، بما يفهم

---

= القرنين الثالث والرابع الهجريين، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، العدد الخامس، ٢٠٠٧، ص٢٤.

(١) ابن الأبار: كتاب التكملة، ص١٠٩.

(٢) ابن الأبار: كتاب التكملة، الجزء الأول، ص٣١٢.

(٣) حامد الشافعي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٧٠-٧١.

(٤) ابن عطية: فهرسة ابن عطية، ص٤٧.

(٥) ابن هذيل: تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الأندلس، تحقيق عبد الإله أحمد النبهان، محمد فاتح صالح، مركز زايد للتراث، الإمارات،٢٠٠٣، الطبعة الأولى، ص١٥، من مقدمة المحقق.

منه أن المشتري كتب اسمه وسعر الكتاب بعد صفحة الغلاف كما يفعل بعضنا الآن، وكان ثمن هذا الكتاب ثلاثة دنانير.

هناك بعض النوازل التي تخص التجارة في الكتب يتضح منها أنها كانت رائجة ومنضبطة بقواعد الشرع، وكأي تجارة كانت تنشأ أحيانا بين أربابها منازعات وخلافات، عرضت على الفقهاء للفصل فيها، ومن أمثلة ذلك: مسألة ذكرها ابن الحاج في نوازله، فقد سئل عمن اشترى كتابا، ثم جاء آخر وادعى أن ذلك الكتاب له، وأنه ضاع منه من زمن طويل وأتى بعقد تضمن معرفة الشهود بذلك[1] بما يفهم منه أن بيع وشراء الكتب كان يتم بكتابة عقد بين الطرفين ويوثق بالشهود، ومنها: أن رجلا ابتاع كتبا فقام آخر يطلبها، وأقام بينة أنها كانت له وزالت عن يده بوجه ذكره[2]، وهناك قضايا أخرى تتعلق باستعارة كتب وتلفها أو فقدها، واتهام صاحبها للمستعير بحبسها ويلزمه بردها، وخاصة أنه متعود على استعارة الكتب وجحدها[3].

من المسائل التي عرضت على الفقهاء كذلك التجارة في كتب الخرافات والشعوذة، إذ حرموا بيعها والنظر فيها وكذلك كتب الأحكام للمنجمين وكتب العزائم[4]، ويفهم من ذلك وجود بعض الكتب غير المرغوب فيها والتي لم تشر إليها المصادر ربما كانت بسبب نظرة الناس إليها، كما أشارت كتب النوازل أيضا إلى عدم جواز بيع المصاحف والكتب التي بها أخطاء أو عيوب حتى يبين البائع للمشتري الخطأ حتى لو أدى ذلك إلى بخس الكتاب[5]، وهذا يدل على تحرى الدقة والأمانة التي يجب توافرها في التاجر عامة، كما وردت بعض المسائل المتعلقة بتحبيس الكتب وما

---

(١) الونشريسي: المعيار المعرب، الجزء السادس، ص ٢٧٠.

(٢) الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص ٢٧٠؛ الجزء التاسع، ص٥٩٩.

(٣) الونشريسي: المعيار، الجزء الخامس، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٤) الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص ٧٠؛ بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٥.

(٥) ابن رشد: مسائل أبي الوليد بن رشد، المجلد الثاني، ص٨٣٢؛ الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص٢٠٣، ٥٩.

يصاحبها من مشاكل منها: أن أحد الناس حبس كتباً ثم باعها[1]، وأخرى فيمن حبس كتباً بشرط ألا يعطى منها إلا كتاب بعد كتاب[2] ... إلخ.

## ثالثا - آثار التجارة في الكتب :

مما لا شك فيه أن الكتب أسهمت بدور كبير في إثراء الحياة الثقافية وتغذيتها بكل جديد ومفيد، فشاعت المعرفة وعم العلم، خاصة وأن الأندلسيين عرفوا بشغفهم بالقراءة واقتناء الكتب، فكان أبو عمران موسى بن سعيد (ت٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) شغوفا بمطالعة الكتب لا يتركها حتى في أيام الأعياد وكان يجد في ذلك لذة وراحة[3]، ومما يذكر عنه أنه عندما تولي إمرة الجزيرة الخضراء من قبل ابن هود[4] علم أن أحد أعيانها لديه كراريس تحوي أخباراً عن الموحدين، فأرسل إليه راغباً في استعارة هذه الكتب ليطلع عليها فرفض وقال: إن كانت له حاجة يأتي على رأسه، فأتى إليه أبو عمران في منزله فلم يحسن ضيافته، وبعد أن أطلع على هذه الكتب شكره وهدأ من غضب ابنه لهذه المعاملة السيئة من الرجل بقوله: إنه لم يذهب إليه وإنما إلى ما في بيته من الكتب وأقنعه بأنه لو كان أصحاب هذه الكتب أحياء مجتمعين في موضع واحد لذهب إليهم والأثر ينوب عن العين وقال: لقد سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية[5].

كما أدت وفرة الكتب إلى زيادة الإقبال على القراءة والتأليف، وما يدل على كثرة عدد الكتب وشيوعها في الأندلس أنه بعد استيلاء النصارى على غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م جمع الأسبان مليونين من المخطوطات

---

(١) الونشريسي: المعيار، الجزء السابع، ص٣٣٧، ٣٤٠

(٢) الونشريسي: المعيار، الجزء السابع، ص٣٤٠، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٩٣

(٣) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٤) قام بثورة على الموحدين في أواخر أيامهم بشرق الأندلس عام ٦٢٥هـ وحكم الأندلس وجاهد النصارى لكنه هزم ومقته الناس ولقبوه بالمحروم وتوفي عام ٦٣٥هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الثالث والعشرون، ص٢٠-٢٢.

(٥) المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني،ص٣٢٩، بالنثيا: تاريخ الفكر،ص٢٤٣، رضا مقبل: تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس، رسالة ماجستير، كلية الآداب،المنوفية، ٢٠٠١، ص١٥٨-١٥٩.

وقاموا بإحراقها في ميدان الرملة بغرناطة[1] وهذا ما جعل دوزي يصف الأندلسيين بأن معظمهم كان يجيد القراءة والكتابة.

كانت أماكن بيع الكتب سواء الأسواق أو دكاكين الوراقين أماكن مشهورة أيضا بالعلم والتعليم واللقاء بين العلماء، فكان دكان أبي إسحاق القرطبي (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) مكانا لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة[2]، كذلك كان دكان أبي بكر التجيبي (ت٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) مألفاً لجلة من طلبة العلم والعلماء بإشبيلية، يأتون إليه لمجالسته والاستفادة منه[3]، وفي بلنسية استقر ابن مطروح التجيبي وكان وراقا يبيع الكتب، وفي دكانه كان يجتمع البلنسيون تجذبهم إليه ثقافته الواسعة، فكانت هذه الدكاكين إذن من أبرز الأماكن التي أرست دعائم الحياة الثقافية في الأندلس، وكانت مقصداً لطلاب العلم والمعرفة، ومكاناً للمناظرات الأدبية والعلمية، يؤمها المثقفون والأدباء والعلماء ويتخذونها منتدى لهم، وملتقى لاجتماعاتهم وإقامة مناظراتهم، وتحولت هذه الحوانيت شيئاً فشيئاً فصارت مقصداً لكل من يبغي علماً أو يهوى أدباً حتى أنها وصفت بالمعاهد العلمية[4].

كانت الكتب أيضا وسيلة اتصال بين العلماء والمثقفين، وهذا ما نجده في كتب التراجم من عبارة "سمع المؤلف من ، أو أخذ عن ، أو روى عن" وهذا يعني أن الكتاب أداة لتوسيع نطاق الاتصال، ولم يقف الاتصال عن طريق الكتب بين الأساتذة

---

(١) ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص١٧٨-١٨٠، لكننا لا نؤيده فيما ذهب إليه من أن ذلك الكم الهائل من الكتب لا يعني أن أهل الأندلس أكثر شعوب العالم ثقافة وبرر قوله بأن امتلاك شعب ما لكتب كثيرة لا يتطلب بالضرورة درجة في رقي التعليم، ونؤكد أن كمية الكتب ورواجها دليل على رقي المستوى الثقافي لأي شعب من الشعوب وأن للكتاب أهمية كبيرة في الثقافة وقلة الكتب أو وفرتها تؤثر على إنتاج وثقافة العلماء. للمزيد راجع عبد الله كنون: أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر، مجلة معهد المخطوطات العربية العدد التاسع، الجزء الأول، ص٤٧- وما بعدها.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٨٨.

(٣) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، ص٤٤٣-٤٤٤.

(٤) ربحي عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ص٨٥.

والطلاب، بل تعدى ذلك إلى اتصال بين علماء الشعوب كما حدث بين علماء المشرق والأندلس، ولعل برامج الشيوخ والفهارس التي برع الأندلسيون في تصنيفها لأساتذتهم أو لمن قابلوهم وأخذوا عنهم العلم دليلا على ذلك.

كذلك لم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح، وإنما كانوا أدباء ذوي ثقافة عالية اختاروا هذه المهنة لأنها توفر لهم فرص القراءة والإطلاع، فقد قاموا بنسخ الكتب المهمة وأصبح للكتاب أكثر من نسخة وعرضوها على الراغبين فيها مما أدى دى للحفاظ عليها وإبقائها، وتشجيع العلماء على التأليف والإنتاج، ومن ذلك مثلاً ابن حيان – مؤرخ- الأندلس(ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) الذي كان واسع الإطلاع جماعاً للكتب، في تأليف كتابه المقتبس في الفترة السابقة عليه فهو لا ينقل إلا عن أصول[١]".

من آثار تجارة الكتب كذلك أن شهد عصر الطوائف نهضة علمية رغم الضعف السياسي[٢]، ويرجع ذلك إلى أن عصر الأمويين كان بمثابة فترة إعداد لهذا النضج العلمي، إذ تجمعت خلاله موارد غزيرة في كل فرع من العلوم، واضطرت الأوضاع الجديدة العلماء إلى الهجرة من قرطبة إلى مختلف النواحي وحملوا معهم مجموعات قيمة من الكتب التي كانت مخزنة بقرطبة في بيوتهم، وفي مكتبات قرطبة العامة وبيع كل ذلك بأبخس الأثمان، وبالتالي انتشرت تلك الكتب في أقطار الأندلس المختلفة.

كما أن الاهتمام بالكتب والحرص على جمعها في مختلف أنواع العلوم، أثر في مفاهيم الناس وأفكارهم فبسبب اهتمام الخليفة الحكم بكتب الأوائل كثرت هذه الكتب في عصره، واطلع عليها الناس وعرفوا ما فيها فكان لذلك أثره في اهتمام البعض بدراسة علوم الأوائل كالفلسفة والفلك وغيرها مما نجم عنه ظهور متخصصين في هذه العلوم.

كذلك مثلت التجارة في الكتب موردًا للدخل لبعض الأندلسيين فإذا لم يكن

---

(١) ابن حيان: المقتبس من أخبار الأندلس، تحقيق، محمود على مكي، ص٢١.

(٢) M,hammad Benaboud:Sevilla en el siglo x1,el reino Abbadi de Sevilla (1023-1091), Sevilla,1992,p.90-95.

العالم ذا منصب ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب وبيعها مثل: محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن(ت بعد٤٥٠هـ/ ١٠٣٣م) من أحفاد الحكم الربضي، كان يعتمد في معيشته على نسخ الكتب وبيعها[١]، والضبي (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) احترف نسخ الكتب وحصّل من عمله هذا مالاً كثيراً[٢]، وعلى بن محمد بن ديسم (ت٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) من مرسية كان يعيش من نسخ المخطوطات وبيع الكتب، وذكر بالنثيا[٣] عن ابن بسام (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) أنه صنف كتابه بإشبيلية وعاش من قلمه ومضى يدبج التراجم مقابل المال، وكان ذلك أمراً شائعاً صنعه ابن خاقان أيضاً، ويرى دوزي أن ما كان ابن بسام يصيبه من المال من أولئك الأثرياء يشبه الأتعاب التي يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين، كما أن تجارة الكتب حققت الثراء لبعض التجار مثل: أحمد بن أبي القاسم الذي أكثر من شراء الكتب وأنفق عليها بسخاء حتى لقد أثرى كثير من التجار نظير العمل معه فيها[٤].

---

(١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس،ص٩٥-٩٦.

(٢) ابن الأبار: التكملة، الجزء الأول، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٤) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص٢٧٧-٢٧٨، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، ص١٠٥، ابن الخطيب: الإحاطة، الجزء الأول، ص٢٥٩-٢٦٠، المقري: نفح الطيب، المجلد الخامس، ص٧٨.

## خاتمة

مما سبق تبين أن تجارة الكتب شكلت جانبًا مضيئًا في تاريخ الحضارة الأندلسية، ولما كانت الدولة الإسلامية تمثل وحدة ثقافية كانت الكتب تنتقل بين أقاليمها المختلفة، فأسهم التجار والعلماء في جلب الكتب من مختلف الأنحاء إلى الأندلس، واهتم الأندلسيون من جانبهم بالعلم والكتب وبذلوا بسخاء لاقتنائها وشجعوا المؤلفين على الإنتاج والتأليف، بالأموال والعطايا السخية والوظائف المرموقة.

نتيجة لازدياد الطلب على الكتب قام منتجو الكتب بالعمل بالنسخ والمقابلة تحقيقا للدقة والضبط، ثم تجليدها وإخراجها في شكلها النهائي لعرضها في الأسواق العامة والدكاكين الخاصة لبيعها، ولم يكتف الأندلسيون بشراء الكتب واقتنائها في بيوتهم، بل قام كثيرون بحفظها عن ظهر قلب كابن عبدون الذي كان أيسر محفوظاته كتاب الأغاني.

تعددت أماكن بيع الكتب فكانت تقام في المدن الرئيسة مثل قرطبة وإشبيلية معارض عامة ربما كانت سنوية يترقبها الناس، يبحثون فيها عما ينشدونه من كتب، وكانت تتم فيها عملية البيع والشراء عن طريق المزاد العلني حيث كان ينادى السمسار- الدلال- على الكتاب المراد بيعه أمام الناس ويظفر به من يقدم أعلى سعر، ومن المؤكد أن أسعار الكتب اختلفت بحسب نوعية الورق وجودة الخط والتجليد وقيمة الكتاب وشهرة مؤلفه ومكانته العلمية وغير ذلك، كما وجدت الدكاكين الخاصة ببيع الكتب، وأحيانا كانت تباع الكتب في مجالس العلماء حيث يجتمع الأساتذة مع الطلاب مما يجعلها أماكن مناسبة لرواج هذه التجارة.

ومن المظاهر الشائعة كما هو الحال في كل عصر بيع كتب المتوفي بناء على رغبة ورثته أو من لا عقب له، وأن هذا كان من الأشياء المفيدة التي أدت إلى انتشار العلم والثقافة في المجتمع بدلا من حبس هذه الكتب عند من لا ينتفع بها، بحيث يمكن أن يعد من إيجابيات سقوط الخلافة تفرق الكتب في مدن الأندلس المختلفة مما أثرى الحياة

العلمية في عصر الطوائف، وهذه التجارة كأي تجارة كانت تنشأ بين أربابها منازعات عرضت على الفقهاء للفصل فيها فوردت في كتب النوازل بعض المسائل المتعلقة بتجارة الكتب.

أسهمت تجارة الكتب في إثراء الحياة الثقافية والعلمية، فكثر النسخ والتأليف مما أدى إلى تعدد النسخ من الكتاب الواحد مما حافظ غالبا على أكثر التراث من الضياع، كما وفرت مادة علمية للمؤلفين اعتمدوا عليها في كتابة مؤلفاتهم، كما قامت دكاكين الكتب بدور كبير في نشر العلم، والاتصال بين العلماء فكانت أشبه بالمعاهد العلمية.

لا شك كانت تجارة الكتب أيضا مصدرا لدخل العاملين فيها، يعتمدون في معيشتهم على ما يربحونه منها، وحقق بعضهم ثراءً نتيجة اشتغاله بهذه التجارة، وأسهمت في حفظ التراث وساعدت على انتشار العلوم وتعميمها وتسهيل انتقالها من مكان إلى آخر في كل أرجاء الدولة الإسلامية.